ختـــــام

إنّ أقوى ما يستقر في ذهن الإنسان هو ما يتنزل به الوحي من الغيب وتصدقه المشاهدة. لذلك قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [1]. لذلك وبعد أن استعرضنا حقائق الوحي وأطوار المعرفة الإنسانية حول موضوع المرأة نجمل استنتاجنا في سبع نقاط هي:

الأولى: إنّ للكون ثنائيات عظمى أودع الله فيها أسرارا كبرى مثل الموجب والسالب في الفيزياء، والقلوية والحموضة في الكيمياء، والأنوثة والذكورة في البيولوجيا، والعقل والعاطفة في السيكولوجيا، والفردية والجماعية في السيوسيولوجيا وهلم جرا.

هذه الثنائيات تتباين تكوينيا وتتكامل عطاءً وأداءً.

وعلة الفكر التقليدي أنّه تعدى على نظام الفطرة بهضم الأنوثة في الذكورة كأن القوامة وهي وظيفة من بين وظائف أخرى تعني إعدام ذاتية الأنوثة وكرامتها.

وخطأ الفكر الأوربي والأمريكي الحديث في بعض مدارسه هو أنّه بردة الفعل أسقط سلطان الذكورة لا بترقية الأنوثة إلى مراقي الندية والتكامل، ولكن بإنكار

(1) سورة فصلت الآية ٥٣.

أنّ الأنوثة والذكورة تعنيان شيئا خارج إطار الوظيفة التناسلية وحدها.

الأنوثة والذكورة ثنائية لا تقف عند حد الوظيفة التناسلية وحدها وستفرض هذه الثنائية نفسها على حياة الإنسان لأنها فطرية.

مفهوم ومقبول أن تحتج حركات الصحوة النسوية على اضطهاد المرأة باسم الفطرة. ولكن ليس مفهوما ولا مقبولا أن تطرد الاضطهاد والفطرة معا.

إنّ الإسلام بالفهم الصحيح لنصوصه القطعية يساوي بين الرجل والمرأة في الدين والعقل والإنسانية ويفرق بين وظائفهما الزوجية تفريقا يأخذ في الحسبان تكوين الأسرة واستقرارها واستعداد طرفيها لدورهما فيها فسيولوجيا وسيكولوجيا.

إنّه تفريق وظيفي مستثنى من المساواة العامة وموجه لغاية أساسية هي: تكامل الأداء والعطاء.

هذا الفهم المستقيم لدور المرأة وحقوقها هو الذي يوشك أن تقف عنده وتطمئن إليه مدارس الفكر الأوربية والأمريكية الجادة.

الثانية: إنّ الذي يتفكر في الحياة يجد أنّ في سنة الحياة معاوضات كبري. فاللذة الجنسية في قصة آدم هي الثمن لفقدان الخلود. ولذة التحصيل في كل مجال ثمنها الجهد المبذول إرهاقا ومعاناة في سبيلها. والحكمة الشعرية تقول:

ولا بد دون الشهد من إبر النحل

وحتى في إطار تجربة الأفراد فان من يفقد بصره يستعاض سمعا مرهفا. والشخص الدميم يستعاض خفة في الروح أو تفوقا في الذكاء وهلم جرا. الكمال لله أما البشر فكل فعل وكل إنجاز له ثمن وكل تفوق في مجال يصحبه نقص في مجال آخر.

إنّ للأمومة دورا هاما في الحياة وتصحبها صفات العناية والرعاية وهي وما تصحبها من خصال لها ثمن. ثمنها انصراف عن التصدي للمخاطر وزهد في حدة التنافس. وهذه هي المجالات التي يتاح للرجل فيها تفوق. ولكي يحفظ الرجل دوره في معادلة التكامل بينه وبين المرأة في بناء الحياة فإنه يندفع للتفوق والهيمنة والإنجاز اندفاعا يحقق بموجبه عطاءً يساوي عطاء الأمومة ويوازيه.

الثالثة: الباب مفتوح، وينبغي أن يكون كذلك، في مجال التقوى والإيمان ليسعى الرجل والمرأة للقيام بدورهما الديني دون قيد. والباب مفتوح وينبغي أن يكون كذلك في مجال حقوق الإنسان ليسعى الرجل والمرأة للقيام بدورهما الإنساني دون قيد. ولكن نظام الأسرة وما يلحق به من نظم اجتماعية يقتضي تضحيات بعضها تفرضها الفطرة نفسها، وبعضها ينبغي أن تحميها المؤسسات.

هذه التضحيات هي مداخل الاستثناءات من قاعدة المساواة العامة وهي أساس التفاضل حيث يفضل الرجال النساء في مجالات ، ويفضلن الرجال في مجالات أخرى.

التفاضل العام المطلق ظلم لا مبرر له. والمساواة في المجالات المعينة المحددة ظلم لا أساس له.

الرابعة: الأحكام التي تنظم أوضاع الرجال والنساء على صعيد الحقوق الإنسانية وعلى صعيد التكاليف الدينية والالتزامات الخلقية والحقوق السياسية والاقتصادية والاجتماعية. وما يتبعها من واجبات ينبغي أن تقوم على المساواة بين الجنسين مساواة لا يحدها إلا إفساح المجال لأحكام أخرى تفرق بين الجنسين في مجالات التفرقة التكاملية.

الخامسة: الأحكام التي تنظم أوضاع الرجال والنساء في مجالات التفرقة بين

وظائفهما هي أحكام مستثناة من المساواة العامة، وعلى المجتمع المسلم استنباط هذه الأحكام من الكتاب والسنة القطعية الورود والدلالة عن النبي ﷺ وينبغي أن يفهم أنّ هذه التفرقة أوجبتها الثنائية الفطرية لحكمة التكامل فلا يجوز أن تكون مدخلا لانتقاص المرأة ولا لإهدار حقوقها الإيمانية أو الإنسانية.

السادسة: الزواج وتكوين لأسرة لبنة أساسية في بناء المجتمع وتربية الأجيال الناشئة. وربما اقتضت مصلحة الأسرة والمجتمع أن تعمل المرأة كالرجل في الكسب وربما اقتضت ألا تعمل في مجالات معينة. وربما اقتضت ظروف المجتمع حشد كل طاقاته بكل أفراده في تعبئة دفاعية أو تنموية وربما اقتضت غير ذلك. هذه الأمور يقررها الراشدون والراشدات باختيارهم دون وصاية. ومقاصد الشريعة الإسلامية تفتح أبوابا واسعة للأحكام التي تحقق المصلحة وتدور مع العلل والمقاصد.

السابعة: مهما بحثنا من أمر وتصفحنا تطوراته في الفكر والحياة وتأملنا ما اهتدى إليه البشر من معرفة وحكمة، فإننا نجد أن الإسلام قد سبق إليها: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٨٨﴾﴾[1]. هذا الذي نقوله هو استدلال بالمشاهد على الغيب، وهو من مناهج الإسلام الأكيدة. قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2] صدق الله العظيم.

(1) سورة النمل الآية ٨٨.

(2) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ و٢١.